

الصلة بين التصوف السني والمذهب الأشعري(*)

د. عبد الرحمن عبد القادر الزبير(**)

عرض
د. أبو اليزيد العجمي

أولاً : الموضوع المختار للدراسة :

تـأتى أهميـة الموضوع من جهتين اثنتين هما :

١ ـ أنه موضوع فى المساحات البينية لمجـالات الفكر الإسـلامى ، يبحث الصلات الموجودة بين مجالين من مجالات هذا الفكر ، وهو أمر لـه أهميتـه بصفـة عامة خاصة وفى ظروف بحث الأمة عن ذاتهـا مـن خـلال تراثهـا الفكـرى وإسهاماتها الحضارية .

ويتضح هـذا الأمر أكـثر حين نذكر بأن العلوم والمعارف التى شكلت الفكر الإسلامى بكل تياراته قد انبثقت بشكل أو بـآخر من فهم المسـلمين للنص الإسـلامى (الكتـاب والسـنة) وجـاءت تلبية لحاجـة فكريـة واجتماعيـة فرضها واقـع الأمـة فـى تطورهـا التـاريخي واحتكاكاتها الثقافية .

وهذا يعنى أن الأصل أن تكون هناك صلات وثيقـة بين مجـالات الفكـر الإسـلامى وتياراتـه من حيث الأصل والهدف ، وربما فى جزء كبير من المنهج والوسائل .

لكـن الـذى حـدث أن العلـوم بعـد نضجهـا وتمايزهـا ركـز أصحابهـا على الاختلاف والتمايز أكـثر مما ركزوا على الصـلات والتقـارب ؛ فكـان أن بدا كل علم كأنـه من ثقافـة تختلف عـن ثقافـة العلم الآخر .

وقد تنبـه بعـض الغيورين على وحدة

(*) رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة من قسم الفلسفة الإسلامية ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة .

(**) استاذ الفلسفة الإسلامية ـ بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة .

هـذا الفكر ، وأهميـــة اســـتثمار هذه الوحـــدة ، تنبهـــوا إلى خطـــورة الجـــزر المنعزلــة في معـارف فكرنـا الإســلامى، وبخاصـة أنهـا لا تستند إلى أسـاس متين يؤيد هذا الانعزال للسبب الذي أشرنا إليـه من وحدة الأصل والحاجة ونحوها ، وأخذ هـؤلاء ومنهـم قســـم الفلســـفة الإســلامية بكليـة دار العلـوم في توجيـه أنظار الدارسين إلى ضـرورة معالجة هذا الخلـل الناتج من وهم لا يستند إلى دليل علمـي في تـاريخ الـتراث الإســلامي ، فكانت دراسـات مثل : جوانب الاتفاق بـين المعتزلـة والزيديـة ، ومثل : الأسـس الكلامية لعلم أصول الفقه ، ومثل الصلة بين التصوف السني والمذهب الأشعري، أقول : العمل في المساحة البينيـة المشـار إليها لـه أهميته من حيث إدراك جوانب الاتفاق ـ وهـي حقيقة علمية وتاريخية - لتبدأ نهاية التعصب والتحزب لجانب من الفكر علـى حسـاب جانب آخر ؛ الأمر الذي يحـرم الأمـة مـن جزء أو أكـثر من تراثهـا تحت وهم أنـه خـارج عن نسق الفكر الإســلامي ، أو دخيل عليـه ونحو هذا مما أثارته بعض النظرات العجلي من بعض المستشـرقين حين أثاروا مـا أثاروا بالنســبة للتصـوف الإســلامي ، والفقـه وغيرهما .

٢- الأمـر الآخر الـذي يـبرز أهميـة الموضـوع هـو أن الحديـث عـن عقيـدة الصوفيـة قـد آثار جـدلاً طويلاً في قضايا عديـدة مثـــل : التوحيـــد ، والجـــبر والاختيـــار، ونحـو هـــذا ، وليـس هـذا بالنسبة للتصوف الفلسفي فحسب ، بل كذلك بالنسـبة للتصوف السـنى (وفق هذا التقسيم) ، وحسبنا أن نشير إلى ما دار بين شـيخ الإسـلام ابن تيميـة وأبى القاســم القشـــيري الصـوفي المؤرخ للصوفيـة، وذلك حين تحدث القشـيري عـن عقيـدة القوم وجعلهـم أشـــاعرة أو آخذين بمنهـج أبى الحســن الأشــعري ؛ الأمـر الذي جعـل ابـن تيميـــة يـرد هذا التصنيـف من القشـيري، ويتهم القشيري بأنه جعلهم على مذهبه العقدي ، ويثبت ابن تيميـة أن الصوفيـة سَـلِفيُّون ، على منهج السلف في العقائد، وتستغرق هذه المحاولـة حوالى مائتين وستين صفحة من كتاب «الاستقامة» بجزأيه ، مفندًا بعض الأقـوال التى نسبها القشـيري - حسب ابـن تيميـة - إلى بعـض أوائل الصوفيـة أمثال : أبى سليمان الدارانى ، والجنيد ، والسـري السـقطي ، ومبينـا أن هؤلاء جميعا ومن نهج نهجهـم سلفيون وليسوا

أشاعرة .

وبصرف النظر عن حقيقة الأمر في المسألة فإن الثابت أنها مسألة مثارة ولها ما لها ، وعليها ما عليها ؛ الأمر الذي سوغ قيام دراسة تبحث عن الصلة بين التصوف السنى والأشاعرة ، تحاول أن تضع النقاط على الحروف ليتبين للقارئ هل الصوفية السنيون أشاعرة في منهج البحث في العقائد ؟ وهل هذا يتعارض مع كونهم سلفيين كما أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية ؟

وهل بالضرورة أن يكون الصوفية مع هؤلاء أو هؤلاء ؟

هذه وغيرها من الأسئلة كانت موجهات البحث في هدفه المبتغى .

أما هل تحقق هذا أو لا ، فهذا ما سنشير إليه فيما يلي من صفحات .

ثانيا: محتوي الرسالة

نشير فى البداية إلى أننا لن نتعرض لتفصيلات المحتوى بقدر ما سنركز على الموضوعات الرئيسة في أبواب وفصول هذه الرسالة ؛ وذلك لسببين :

١- أنه ليس في الإمكان في المساحة المتاحة لنا هنا أن نتعرض بالتفصيل الذي نرى فيه أحياناً عبئا على القارئ أكثر من إفادته ، وبخاصة في تفصيلات خلافية لا تمس جوهر القضية . فالإيجاز رعاية للمكان ومصلحة القارئ هنا أولى.

٢- أننا فيما نشير إليه من ملاحظات قد نمس بعض هذه التفاصيل دون سرد لها أو وقوف طويل أمامها .

** يجيء هنا البحث في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

عنيت المقدمة بما تعني به كل المقدمات من أسباب اختيار الموضوع وظروفه وبيان الخطة والمنهج ، وجاءت الخاتمة ملخصة لما توصل إليه الباحث عبر رحلته الطويلة في الأبواب الأربعة ، كما أوصت بما رآه الباحث من اقتراحات تفيد الدرس العلمي في هذا المجال .

أما **الباب الأول** فكان عنوانه : **«التصوف بين اتجاهات الفكر الإسلامي وصلته بها – نظرة تاريخية لتطور الحياة الروحية »**

وكما هو واضح من عنوان الباب كان التركيز على قضايا ثلاثة :

الأولى : نشأة الفرق الكلامية في الفكر الإسلامي ، وكيف أن الجدل بينها كان له تأثيره على وجود جفاء وقسوة كان لهما أثرهما في الحياة

الروحية .

الثانية : صلة الزهد والتصوف بالاتجاهات الفكرية ، ومحوره أن الزهد سمة تغلغلت في كل العصور والفئات ، فللصحابة زهادهم وللتابعين زهادهم، وفى كل فقهاء أو متكلمى هؤلاء أو أولئك أو محدثيهم بينهم الزهاد وأصحاب الرقائق . والباحث يعنى أن هذه السمة التى كانت أرضية التصوف فيما بعد سمة عامة تربط بين كل أصحاب الفكر الإسلامي سنة أو شيعة، معتدلة أو معتزلة.

الثالثة : كيف تطور هذا الزهد ليصبح اتجاهاً له أصوله النظرية إلى جانب الممارسة العملية ، وكيف حمل اسماً جديداً هو التصوف وما دار حول الاسم من جدل ، لكنه في كل الأحوال كان على صلة بالتيارات الفكرية الموجودة في المجتمع الإسلامي آنذاك .

الباب الثاني وعنوانه :

(صلة آراء الصوفية بآراء أهل السنة الكلامية وأثرهما فى التمهيد للمذهب الأشعرى وصلته بالتصوف السنى)

وقارئ هذا الباب يلمح بوضوح أن الباحث قد بدأ رحلته الحقيقية في موضوعه ، وأنه في الباب السابق كان يمهد له ، وهو هنا يركز على قضايا ثلاثة :

الأولى : إسهام الزهاد فى تكوين آراء عقدية كان لها ما بعدها فى التمهيد للمذهب الأشعرى ، وهذا أمر طبيعى؛ لأن العقائد أساس عند كل مسلم سواء كان من الزهاد أو من غيرهم ، ويورد أمثلة لهذا الإسهام عند الحسن البصرى فيما نسب إليه من كتابات عقدية، مثل رسالة في القضاء والقدر ، وعند جعفر الصادق ، حتى يصل إلى المحاسبي المتأخر نسبيًّا ليورد إسهاماته في هذا الباب ، ومسألة التمهيد للمذهب الأشعري عند الباحث تعنى أن هؤلاء الزهاد قالوا بآراء متفقة مع السلف ، وهذه الآراء هى ما أفاد منه أبو الحسن الأشعري بعد ذلك .

الثانية : يورد إسهامات أهل السنة في باب البحث العقدي ، من الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين ، ويحاول أن يبرز تطابق آراء هؤلاء مع آراء الصوفية لتشكل كل هذه الآراء تمهيدًا للمذهب الأشعرى .

الثالثة : فصل ثالث يتحدث فيه عن أبى الحسن الأشعرى ، وكيف ترك

بمجلس الاعتزال وكرس وقته وجهده للرد عليهم والدفاع عن مذهب أهل السنة وتوضيحه للناس ، والأسباب التى دعته إلى هذا وذاك . ويلمح القارئ إصرار الباحث على جعل أبى الحسن الأشعري سلفيًا من أول لحظة متناسيًا أن كلامًا حدث حول كتب أخرى « غير الإبانة» للأشعري . ولعل هذا الإصرار هو الذي جره - كما سنرى - إلى عدم حسم مسألة هامة هى هل الصوفية أشاعرة أو سلفيون كما يقول ابن تيمية ؟

أعنى أنه سوّى من أول لحظة بين الأشعرى والمنهج السلفى .

وعلى كلٍّ فله اجتهاده الذي يؤجر عليه في هذا الباب .

الباب الثالث . وعنوانه (طرق الاتصال بين الصوفية والأشاعرة)

وواضح أنه يعني جوانب الارتباط بين الصوفية والأشاعرة ، هذا الارتباط الذي تعددت مناحيه والتي يمكن حصرها في :

١- ارتباط تاريخى حيث يصل كل من الصوفية والأشاعرة سندهم وآراءهم برجال الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، ويجعلون طريقتهم في العلم والعمل أصلاً من أصولهم ومنهجًا لهم في السلوك والعقيدة .

٢- وفي الفصل الثاني يتحدث عن الارتباط الديني حيث تجمع بينهم قضايا مشتركة يتبعون فيها منهج السلف في العلم والعمل . ومن هذه النظر إلى الصحابة ، والموقف من الفرق المغالية ، ونحو هذا مما يشكل صلة بدأت ثم تطورت في نطاق المنهج السلفي قبل أبى الحسن الأشعري ومعه وبعده .

٣- أما الفصل الثالث من هذا الباب فهو يختص بالارتباط السياسي بين الصوفية والأشاعرة ، وهذا يتمثل في جانبين هما :

أ- اتفاق وجهة نظر الصوفية مع آراء الأشاعرة في مسألة الإمامة ، ومتابعتهم رأي سلف الأمة فيمن تولى الحكم من الخلفاء الراشدين .

ب- موقف كل من الصوفية والأشاعرة مع حكام المسلمين نصرة أو معارضة ، وفى هذا ما فيه من اتفاق وارتباط في المنطلقات والأهداف .

أما الباب الرابع وعنوانه (الصلة الفكرية بين التصوف السنى والمذهب الأشعري . (نماذج من التلاقى في القضايا الاعتقادية والفكرية) .

وهذا الباب يمثل التطبيق لكل ما

توصل إليه الباحث من تنظير للصلات القائمة بين التصوف السنى والمذهب الأشعري ؛ لذا فهو يجعل فصله الأول أمثلة للصلات العلمية والفكرية .

.. ثم يأتى في الفصل الثانى يقارن بين آراء الصوفية في قضية الألوهية وآراء الأشاعرة في القضية ذاتها بكل ما يتفرع عنها من مسائل الصفات ، والاستدلال على وجود الله ، والوحدانية بصفة خاصة ، ونحو هذا .

ثم يجئ الفصل الثالث ليقارن بين آراء الصوفية والأشاعرة في قضية النفس الإنسانية : مصدرها ، طبيعتها ، حدوثها ونحو هذا ليصل من خلال هذا الباب إلى وجود صلة قوية بين التصوف السنى والمذهب الأشعري ، وهذا ما ركز عليه خاتمته التى جاءت مركزة ودقيقة أكثر من غيرها من المباحث .

ثالثاً : نظرة على هذا الجهد العلمى

بداية نقرر أن حديثنا السابق عن الموضوع وأهميته يمثل أبرز الإيجابيات في هذا العمل ، والذي تضم إليه إيجابيات كثيرة بعضها خاص بالدأب على البحث، وبعضها خاص بالرجوع إلى أصل المصادر ودقيق المراجع ، وبعضها يتصل باللغة العربية السليمة والواضحة التى عبرت عن مضمون البحث ، وبعضها يتصل بالنسق المكون لأبواب البحث وفصوله إلا فيما ندر من تأخير ما كان ينبغى أن يقدم ، ونحو هذا .

لكن هذه الإيجابيات وهذا الموضوع الهام هو الذي يجعلنا نلقي بعض الأسئلة ونشير إلى بعض الملاحظات .

ونبدأ بتساؤل مؤداه : هل حقق هذا العمل ما كان متوقعًا منه من حيث تحقيق الصلة بين التصوف السنى والمذهب الأشعري ؟ وهل حسم هذا العمل ما كان بين شيخ الإسلام ابن تيمية والقشيري من أخذ ورد حول أشعرية الصوفية أو سلفتيهم ؟

.. والواقع أنه من خلال المحتوى الذي أشرنا إليه بإجمال نقول : لقد نجح الباحث في تحقيق الصلة بين التصوف السنى والمذهب الأشعري وصولاً إلى وحدة الفكر المنبثق من أصل واحد، ولتلبية حاجة اجتماعية ودينية واحده وقد جاء نجاحه في هذا الصدد نتيجة لتعدد المداخل التى دلل بها على وجود هذه الصلة ، فمن صلة في الجانب الروحي ؛ إذ هذه فطرة لا تفرق بين علم كلام أو غيره من العلوم ، إلى الصلة في الآراء العقدية المبكرة التى تنطلق من

موافقتها لما كان عليه سلف هذه الأمة ، بل وأكثر من هذا جعل بواكير الآراء الصوفية لدى المحاسبي والجنيد وغيرهما ممهدة لظهور المذهب الأشعري بالمعنى السلفي الذي يراه الباحث ، إلى صلة بين الطرفين في المكونات السياسية والعقدية والمنهجية . ثم إلى تطابق فيما هو حول قضايا محددة مثل قضية الألوهية وقضية النفس .

أقول : لقد نجح الباحث في تحقيق هذه الفرضية التي سوغت عمله العلمي هذا ، لكن على صعيد آخر من الناحية الشكلية لم يحسم الجدال الذي كان بين شيخ الإسلام ابن تيمية والقشيري ، وإن كان هذا في صلب موضوعه ، ومن ألزم واجباته ، فهو لم يعط هذه القضية إلا بضع صفحات أشارت دون غوص في الأعماق ، أو دون لجوء إلى التحليل والمناقشة .

وقد يعتذر للباحث بأن ما قدمه من أدلة على الصلة بين الصوفية والمذهب الأشعري قد أظهرت أنه اختار رأي القشيري في أشعرتيهم ، إلى جانب إن الباحث يرى أن الأشعرية والسلفية وجهان لشئ واحد .

وقد يكون هذا العذر مقبولاً بنسبة ما ، لكن عملاً علمياً كهذا يستهدف بيان وحدة مجالات الفكر الإسلامي ما كان له أن يمر على هذه النقطة مر الكرام دون أن يقف أمامها باحثًا عن أسباب هذا الجدل ، ولو فعل لوجد أن الخلاف بين الشيخين لفظي ؛ لأن ابن تيمية لم يكن يرفض أشعرتيهم بالمعنى السلفي ، وإنما كان يرفض أشعريتهم في مسائل معينة كالكسب ونحوه ، والمعنى أن الصوفية أصبحوا متكلمين يجادلون ويفرقون في الجدل وهم ليسوا كذلك .

على أية حال نقول : نجح الرجل في نصف ما أراد نجاحًا باهرًا ، وحاول بطريقته - التي وحدت بين السلفية والأشاعرة - في نصفه الآخر . وحسبه المحاولة وإن كنا نهيب به أن يعيد النظر فيما أشرنا إليه .

